واقع مناهج البحث العلمي في الدّراسات الأدبيّة في الجزائر (من خلال الرّسائل والأطروحات الجامعيّة)

الدّكتور عزّالدّين المخزومي - جامعة وهران

عرفت الجامعات الجزائريّة – منذ بدايات الثّمانينيّات – نشاطا واسعا في ميدان الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة والنّقديّة ، وفي العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ، بعامّة ، وتطوّر هذا النّشاط في إطار مشاريع الماجستير ، بصفة خاصّة ، حيث تعدّدت البحوث وتنوّعت الموضوعات التي تعرّضت لها . وقد عكس هذا النّشاط المناهج التي تبنّتها هذه الدّراسات ، في إطار البحث الأكاديميّ ،كما عكس درجة تطبيق الباحثين لها ، الشّيء الذي جعل الأساتذة المناقشين لهذه الدّراسات يقفون عند نقاط التّوفيق والإخفاق في تطبيقها .

ولا شكّ أنّ الأساتذة المناقشين للأعداد الكبيرة من الأطروحات والرّسائل الجامعيّة ، وبخاصّة في ميدان تخصّصنا ، يدركون – على وجه العموم – النّقائص والضّعف المنهجيّ الذي وقع ويقع فيه الباحثون عندنا ، في مختلف جامعاتنا .. ،وهو يتركّز، أساسا – لدى الكثير منهم – في الجهل بطبيعة البحث من حيث البناء الهيكليّ لمحاوره والبناء الأسلوبيّ العلميّ له ... ؛ فالكثير منهم لا يحسن تقسيم مادّة بحثه ولا يفرّق بين الأسلوب الصّحفي والأسلوب العلمي ، وأصبح التّركيز على عرض ما جمعه من مادّة ، فيأتي العنوان – في كثير من الأحيان – بعيدا عن جلّ فصول الرّسالة .. وبين هذا وذاك يصاب البحث بحالة فصام تعكس التّشتّت الذّهنيّ للباحث وضعف ثقافته المنهجيّة .

وقد أدّى هذا الضّعف إلى ادّعاء الكثير من الطّلبة أنّهم طبّقوا هذا المنهج أو ذاك في دراساتهم ، ويأتون بالعناوين الضّخمة والبرّاقة ليوهموا أنفسهم ، قبل القارئ ، بأنّهم تناولوا هذه الدّراسة بمنهج تاريخيّ أو منهج بنيويّ أو منهج سيميائيّ أو أنّهم قد درسوا هذا البحث بمنظور نظريّة التّلقّي ...

وهكذا . ولكن الواقع العمليّ التّطبيقيّ يكشف زيْف ادّعائه بأنّه يُلمّ إلماما كاملا بهذا المنهج أو ذاك ، وكلّ ما في الأمر هو أنّه قد عرض فصلا نظريّا عن هذا المنهج اعتمد فيه على نتائج الدّراسات النّقديّة المتخصّصة . وحينما يأتي إلى التّطبيق يقف عند تُخوم هذا المنهج دون الدّخول إلى عالمه الواسع الذي يتطلّب إلماما بفلسفة المنهج وبأسلوب أو أساليب تطبيقه ، ولهذا تأتي دراسته ضخمة في حجمها ضعيفة في مضمونها .

وأنا لا أقصد – بكلامي هذا — التّعميم ، لأنّ هناك دراسات مُحْكَمَة في منهجها وأسلوبها ، تعكس جهد الباحث وثقافته الواسعة المتأصّلة وإلمامه العميق بمناهج الدّراسة ومناهج النّقد بحيث يكون بحثه راقيا ، شكلا ومضمونا ، منهجا وأسلوبا ، يُشَرّف الباحث نفسَه ويُشرّف القسم والجامعة التي ينتمي إليها ، ويُعْتبر إضافة نوعيّة تُضاف إلى المكتبة المتخصّصة تفيد الباحثين .

ولهذا فإنّ تقويمنا لواقع مناهج البحث العلمي في الدّراسات الأدبيّة عندنا قد تركّز على الأغلب الأعمّ الذي يعكس ضعف البحث الذي بدأ يأخذ شكل ظاهرة سلبية تحطّ من قيمة الدّراسات العليا في بلادنا . وأعتبر اهتمامي هذا دعوة إلى زملائي الأساتذة للعمل المشترك من أجل تغيير المفهوم السّائد للبحث الجامعيّ عندنا وإرساء قواعد علميّة تخطيطيّة تنهض بالبحث الأكاديمي في دراساتنا ، وذلك بوضع برامج تُركّز على دراسة علم المناهج وفلسفته وإجراءاته ، وبخاصّة في ميدان الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة .

إنّ الظاهرة التي يعاني منها الكثير من الباحثين عندنا هي الضّعف البادي على البناء الأسلوبي للبحث – وبخاصّة لدى الباحثين المبتدئين – إذ يلاحظ القارئ المتخصّص أو ، بصورة أدقّ ، الأستاذ المناقش ، ضعف الباحث في استيعاب الأسلوب العلمي والخلط بينه وبين الأسلوب الصّحفي ، ومهما ادّعى هذا الطّالب الباحث أنّه توخّى الكتابة بأسلوب علميّ فإنّه يُراوغ نفسه ؛ ذلك أنّ القارئ يَلمس في أسلوبه حالة من الفصل والتّشتّت الذّهني الذي يعكس حالة فصاميّة تُبرز التّباعد وضُعف التّلاحم بين اللّغة والموضوع والفكرة والمنهج . وهذا الضعف أو التّباعد يجعل كتابته سطحيّة ، إنشائيّة ، هزيلة ، بعيدة عن الرّوح العلميّة .

وتوضيحا لما أقول ، هو أنّ الكتابة العلميّة لها شروطها التي يجب الالتزام بها –استيعابا نظريا وإجراء تطبيقيّا – فالأسلوب العلميّ في الرّسائل الجامعيّة يتشكّل من ثلاثة عناصر أساسيّة لا يمكن الاستغناء عن أحدها ، وهي :

1) الأسلوب . 2) الموضوع . 3) المنهج .

1 – يجب أن تتوفّر في الأسلوب شروط لا يحقّ للباحث أن يُهمل أحدها وإلاّ سقطت روح العلميّة عنه ، وهي:

ا) الدّقّة . ب) الحتميّة . ج) الإيجاز . د) الموضوعيّة .

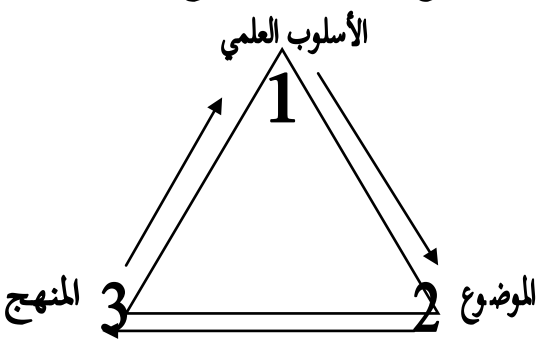
وهي كلّها عناصر عقليّة يحكمها المنطق وتتضمّنها اللّغة .

- فالدّقّة تكمن في دقّة اختيار الألفاظ التي تلائم الفكرة التي يُعالجها الباحث ، بحيث تكون مرتبطة بموضوع بحثه ، في إطار تخصّصه .
- والحتميّة تكمن في حتميّة وجود هذه الكلمة ، أو تلك ، في سياق الفكرة المقصودة لذاتها ، بحيث لو غيّرناها أو عوّضناها بكلمة أخرى اختلّ بناء الفكرة واتّخذ مسارا آخر غير الذي نقصده .
- والإيجاز يكمن في القدرة على اختيار العبارة التي تعبّر بأقلّ كلمات عن المعنى المقصود ؛ لأنّ التّمطيط يُوقع في الإنشائيّات ويُضعف المعنى ويُبعد ه عن الهدف ، وقد يُغيّبه ، وهذا يُصيب الذّهن بالميوعة التي هي جرثوم أو "فيروس" البحث العلمي .
- وأمّا الموضوعيّة فهي الالتزام بروح الحياد والعمل على التّجرّد من الميول والعواطف التي قد يفرضها الموضوع على الباحث ، وبخاصّة الحديث العهد بالبحث ، ذلك أنّ الباحث كثيرا ما يتعاطف مع الموضوع أو الشّخصيّة التي يدرسها فيُكوّن هذا التّعاطف في نفسه مُيولا تُفقده الالتزام بالخطّ الذي يجب أن يَسلكه موضوع بحثه .

إنّ الاهتمام باللّغة هو أساس الاهتمام بالفكر ، فاللّغة هي الفكر وليست وعاء له ، كما يرى الذين لا يُدركون حقيقتها ..، وما الفلسفة سوى بناء لغويّ . وقد عبّر عن ذلك – بصورة تطبيقيّة – الفيلسوف النّمساوي "لودفيج فتجنشتين - wittgenstein ludwig " (1989-1951م) الذي بنى مراحل فلسفته الثّلاث على اللّغة ...

هذه هي خصائص اللّغة العالمة – كما نراها – التي تفتقر إليها بحوثنا الجامعيّة، وقد مثّلتها بهذا المثلّث الذي يُبيّن توحّد العناصر فيها وعدم الفصل بينها ، بصورة مطلقة :

اللّغة(المتخصّصة)+ الموضوع (مادّة البحث) +المنهج(منهجيّة البحث)= الأسلوب العلمي(3 =1).



إنّ هذه العناصر في تفاعلها وتوحّدها تُنتج أسلوبا خاليا من الحشو والتّكرار والاستطراد ، وهي تُعدّ أعداء الأسلوب العلمي .. ومن ثَمّ أعداء المنهج الذي لا يُمكن له أن يستقيم ويسود البَحْثَ في ظلّ هذه الفيروسات الهدّامة .

بعد كلّ هذا نسأل هذا السّؤال المنطقيّ :

كيف يُمكن للبحث أن يستقيم في ظلّ هذه الفوضى الفكريّة ، التي تُعدّ تداعيات لفكر مائع فاقد لمنطق البحث . ومن هنا ، يأتي البحث مضطربا ... يبدو جذّابا وملفتا للانتباه حينما نقرأ عنوانه لأوّل وهلة بحيث ينال إعجابنا ويشدّنا إليه ، ذلك لأنّ أوّل قراءة سريعة للبحث الجامعيّ تبدأ من العنوان والمقدّمة والفهارس والخاتمة ومكتبة البحث (قائمة المصادر والمراجع) . فالعنوان هو الذي يُعرّفنا بومضة طبيعة البحث الذي بين أيدينا .. ، وهو الذي يعكس الصّورة الحيّة عن مدى توفيق الباحث أو إخفاقه في بحثه ، لأنّ بناء العنوان هو الصّورة المصغّرة للموضوع بمئات ومئات المرّات ، وهو إذا كُبِّر كان هو الموضوع مفصّلا ، بكلّ دقّة متناهية , ولكن للأسف كثيرا ما يقف الأستاذ المناقش عند مجموعة من الفصول تكون مقحمة في البحث إذ لا طائل من ورائها وحذفها يُعطي صورة جميلة للرّسالة التي تبيّن ، إلى جانب احترام وتطبيق اللّغة العالمة ، المتمثّلة في

الأسلوب العلمي للبحث . وكلّ هذا يعكس – بصورة جليّة – جهل الطالب الباحث بتقنيّات البحث ..

وهنا نقف لنتساءل أو نسأل :

ماذا يُرجى من طالب ماجستير – مثلا – وهو يجهل تقنيات البحث والكتابة ، أن يُطبّق في دراسته منهجا بصورة علميّة ، ديناميكية ، فاعلة .. ؛ إنّه لا يُحسن كيفيّة كتابة مشروع بحث . ولا كيفيّة قراءة مادّة البحث وأنواعها وتصنيفها إلى أبواب وفصول ومباحث ، كما أنّه لا يستطيع أن يُعرّف الفقرة أو المبحث أو الفصل ...، ويجهل كذلك وظيفة المقدّمة والعناصر التي يجب أن تتمثّلها في عرض إشكالية البحث وظروفه والدّراسات السّابقة ، والمنهج الذي قامت عليه الدّراسة ...، وكذلك الحال بالنّسبة للخاتمة ، إذ نرى الكثير من الباحثين لا يُفرّقون بين عرض أهمّ نتائج البحث فيها وبين تقديم خلاصة له . ولا أشُكّ في أنّ الزّملاء هنا لايختلفون معي في الرّأي من حيث إنّ السّواد الأعظم من الطّلبة الباحثين لا يعرفون كيف يُرتّبون قائمة مصادر ومراجع البحث ، لا من حيث الأسماء ولا من حيث أنواع المصادر والمراجع .

إذن ، إنّ واقع الدّراسات عندنا يُؤكّد ذلك ، بل يؤكّد بُعده كظاهرة تكاد تعمّ كلّ جامعاتنا دون استثناء . ومن هنا ، يتبيّن أنّ تطبيقات مناهج الدّراسة والنّقد بعامّة – حديثة أو معاصرة – كانت تجد تعثّرا حينما تَغرق في فضاء اللاّمنهج إذ تُحسب على المناهج وهي بعيدة عنها أو ضعيفة الصّلة بها ؛ لأنّها ، بصورة بارزة ، قد طُبّقت بشكل باهِت و لم تَجِدْ الحقل الفكريّ المنهجيّ الذي تتغذّى فيه ، وفاقد الشّيء لا يُعطيه . . لأنّ جلّ الباحثين عندنا – وبخاصّة طلبة الماجستير – لم يُلمّوا بعلم المناهج ، وبخاصّة الجوانب التي تتعرّض لتفاصيل بناء الرّسالة ، ومناهج البحث والدّراسة ؛ تاريخيّة كانت أو وصفيّة أو اجتماعيّة أو نفسيّة أو بنيويّة أو تفكيكيّة أو سيميائيّة أو مطبّقة لنظرية التّلقّي ...

وقد أكّدت الدّراسات التّطبيقيّة للكثير من الباحثين الشّباب قصور نظرتهم العلميّة وعدم قدرتهم على الخوض في هذه المناهج بروح وثّابة تحدوها الثّقافة المنهجيّة والمعرفيّة لموضوع البحث ، وذلك لأنّهم تعوّدوا أن يجدوا كلّ شيء جاهزا أمامهم ، فهم لا يُحبّون الجري والتّعب ، في جمع المادّة ، حتّى إنّ بعضهم راحوا يكتبون في مقدّمات بحوثهم عبارة " تعذّر عليّ الحصول على بعض

المصادر والمراجع ، لكونها غير متوفّرة في المكتبات ... " . وهذا ما يرفضه منطق البحث العلمي ، إذ كيف نعُدُّ كتابته في موضوعه — بهذه الطّريقة - بحثا ، وهو لم يُحمّل نفسه عناء السّفر والاستقصاء والبحث عن كلّ ما ينقص بحثه من مادّة ..

تَعْكِسُ هذه الحقيقةَ الارتجاليّةُ في اختيار الموضوع ، وهذا ما يجعل دراسته ضعيفة ولا يُمكن أن نَعُدَّها موضوعيّة . ويعود مَرَدُّ ضعف البحوث - إلى جانب ما سبق ذكره - إلى عدّة عوامل، منها أنّ الباحث يعمل من أجل إنهاء البحث بأيّ صورة من الصّور بُغية الإسراع بالطّبع والمناقشة ، من أجل التّسابق إلى التّوظيف .. والعامل الآخر الذي يعكس هذا الضعف هو ربط الباحث - في مشاريع الماجستير - بمدّة زمنيّة معيّنة للمناقشة ، وبخاصّة إذا كان موضوع بحثه يتطلّب وقتا وجهدا كبيرين . هذا إلى جانب أنّ الكثير منهم لا يعرفون - كما سلف الذّكر - كلّ مناهج النّقد ومناهج الدّراسة .

وهناك عاملان آخران - أساسان —يُسهمان في تعميق ضعف الدّراسات الجامعيّة عندنا ، هما :

–الأوّل ، أنّ كثيرا من مشاريع الماجستير تُعدّ في موضوعاتها مستهلَكة ، إذ لا يقوم الطّالب فيها إلاّ بعمليّة الجمع والرّبط والتّعليق ، مكرّرا ما قاله الآخرون ، دون تحليل أو إضافة أو نقد .

– والآخر ، يتمثّل في قلّة الصّرامة العلميّة الكاملة من جانب بعض المشرفين ...

د/ عزّالدّين المخزومي .
وهران